

إفريقيا المسلمة متحمة للغة القرآن ... ولكن ضعف الوسائل يحول دون انتشارها

شيخ شريف مكي حيدر

(حلب)

تحمله حروفها وحكماتها من دلالات ومضامين هدتهم الى فهم آيات القروان واحاديث النبي وكل ما يتصل بروح الشريعة الاسلامية حتى اخذوا يؤلفون بالعربية دون لغاتهم الاصلية التي ما كانت لتستطيع التعبير من آرائهم وخواجهم بهذه الافاق المنطلقة .

والتأليف التي تركوها نقل في قيمتها العلمية من التي ألفها ابناء العرب الخلف . ولا مبرر لهذا الاتجاه الا الحائر الذي دفعهم لادراك اسرار الشريعة الاسلامية ، ثم النزعة التي فاضت بها القلوب بحب هذه اللغة التي نزل بها القرآن فكانت الشعلة التي اوقدت الافكار فتركوا لنا تراثا ضخما ما تزال البشرية تعيش على روائحه مختالة فخوره .

ولا مجال لذكر الاعلام الذين الفوا في العربية فهم من شتى الامم ، من الفرس والتراك والديلم والهنود ، حسبى ان اذكر الفارابي ، وابن جني ، والفزائي ، وابن سينا ، والفخر الرازي والبيروني ، والسهوردي ومشترى من الفحول الذين تركوا لغتهم وكتبوا تاملاتهم وادراهم في الدين والتصوف والعلم والادب والحكمة - كتبوها بالعربية الفصحى وما تزال متداولة حتى يومنا هذا .

وفي خزانتي كتاب باللغة التركية عنوانه « عثمانلي مؤلفري (1) لمؤرخ اديب اسمه «بروسلي

لم اظهر مظاهر الترابط بين الاسلام ولغة القرآن ، ان الاسلام لا يمكن ان يفهم فهما كاملا بدون التعمق بدراسة لغة القروان .

فقد نزل الوحي الرباني على النبي الكريم بهذه اللغة التي جمعت فاضت . . وكانت من البلاغة وسحر القول ما هز النفوس وايقظ الضمائر .

وحين استفاضت الدعوة المحمدية لم تشمل العرب فحسب ، بل تجاوزتها الى الكثير من اقطار الدنيا فاستجابت لها امم من الشرق ومن الغرب ، متبينة الاهداف والانظمة والمقائد واللغات - استجابت للدعوة المحمدية لا لشيء الا لما تضمنته من مبادئ انسانية ونزعات مثالية ونظم خيرة وسنن كريمة .

وقد اقبل غير العرب على تعلم لغة القروان بغية فهم محكم آياته فانكشفت لهم آفاق ترفع من كرامة الانسان وتصون حقوقه وتثبته ليكون اداة بناء في دعم الحضارة الانسانية .

وما هي الا فترات لم تطل ، جيلا بعد جيل ، حتى كانت العزبية ، قد هزت افئدة لطاحل الرجال الاذكياء من مختلف الامم ، فحكفوا وهم يدرسونها ، على التعمق في اسرارها فما كادوا يلتمسون هذا الجمال ، وهذا الغنى في الفاظها ومفرداتها ، وفيما

(1) الكتاب في مجلدين كبيرين ثلثت صفحاها على الستمائة صفحة بالحرف الصغير .

ولا اعلم اذا كانت بعثة الجامعة العربية لتصوير المخطوطات العربية والتي قامت بعدة رحلات الى تركيا - قد اهدت الى هذه الآثار وصورت بعضها ..

كان علماء الأتراك في عهد السلطنة العثمانية يؤلفون الكثير من كتبهم بالعربية كعلماء الفرس تماماً ..

ومنذ عهد الغازي أتاتورك ، وقبله بسنوات ، أي منذ ذرت « المنصيرية الطورانية » قرونها - توقف هذا الاتجاه ، بل قضي عليه تماماً بعد أن استبدل الأتراك الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية - وهذه جناية لا تغفر لفرضها أتاتورك على الشعب التركي الذي فصل بينه وبين الحرف العربي المقدس الذي نزل به القراءان .. وكانى به قد مس الأخوة الإسلامية في الصميم وجعله يتجه الى الغرب بدل ارتباطه بالشرق وبالشرق الإسلامي بصورة خاصة .

واستدرك فاقول ان الشعب التركي بمجموع أفراد وطبقاته ومجتمعاته متدين عريق الندين ، يفيض قلبه بروح الإسلام ، وما يزال مرتبطاً بحسه وقلبه وضميره ببلاغة القراءان .. ولكن هذه الصلة بين الروح الإسلامية وبين الجيل الجديد سيمروها شيء من البلبلة والتفكك الا من عصم ربك !

اذكر بهذه المناسبة ان نقاشا كان دار بيني وبين صاحب جريدة « آقشام » - الماء - الاستاذ نجم الدين صادق - وهو من انصار أتاتورك المتحمسين - دار هذا النقاش حول الحرف اللاتيني ، واذكر انه قلت له : ان الجيل الجديد سيعيش هذا في متاهات مظلمة حين يبحث من اصل الكلمات التي دخلت لغته - وقد دخلها الكثير من لغات الشرق والغرب - . وضربت مثلاً عدة كلمات منها كلمة « المحبة » - والأتراك يلقبون الحاء « هاء » فيلفظون المحبة « مهبت » ، وامثالكم من الجيل القديم يدرك ان اصل الكلمة من « الحب » وهي كلمة عربية ، اما الجيل الجديد - وقد قطع صلته بالحرف العربي - فسيجهل الكثير من اصل الكلمات التي يتحدث بها او يكتبها - سيجهل أي عربية الاصل أم الفرنسية أم سنسكريتية - وبذلك تغطي البلبلة على افهام النشء الجديد الذي سيعيش في تيه من الرطانات!

واقر بالامر .. ثم قال اننا اخترنا الخطه التي رسمها الغازي ولا حيلة لنا في الامر ، ولسنا نادمين!

محمد طاهر» ترجم فيه لمئات المؤلفين الأتراك الذين دونوا علومهم بالعربية .. فهم مؤرخون وأطباء ورياضيون وجغرافيون وشعراء وأدباء وعلماء - الفوا بالعربية وبالتركية والفارسية وما الفوه بالعربية اكثر ..

وافتح هذا الكتاب على غير هدى ، واقرا سيرة عالم عرف باسم الـ «الكافيجي» او «الكافيه جي» اسمه ابو مهدي الله بن سليمان بن مسعود الهومي احد فضلاء الأتراك ، هجر قريته « برغمه » وقام برحلات الى اطراف الأناضول ، والى ايران ، والى آسيا الصغرى يتصل بالعلماء ويأخذ عنهم ، ثم انتهى به المطاف الى مصر فاتصل بالملك الأشرف برييائي الذي اكرم وفادته وخلع عليه الخلع ، ثم ناط به احدى الرتب العلمية .

لقد ترك هذا المؤلف التركي عشرات الرسائل والكتب بالعربية منها :

- 1 - التيسير في علم التفسير
 - 2 - انوار السعادة في شرح كلمة السعادة
 - 3 - تشريح مسألة الاستثناء
 - 4 - الاشراق في مراتب الطباق
 - 5 - سيف القضاة على البغاة
 - 6 - الفرح والسرور في بيان المذاهب
 - 7 - نزهة الارواح ولعبة الاشباح في التصوف
 - 8 - شرح تهذيب المنطق والكلام
 - 9 - منبع الدرر في علم الاثر
 - 10 - منازل الارواح
 - 11 - المختصر المفيد في علم التاريخ
 - 12 - حل الاشكال في مباحث الاشكال والهندسة
 - 13 - تفسير الآيات المتشابهات
 - 14 - نزهة المغرب في المشرق والمغرب
- ويصل عدد هذه الرسائل والكتب الى الأربعين كتاباً .

واكثر الكتب التي اشار اليها مؤلف الكتاب ، هي مخطوطات في مكتبات استانبول والأناضول ..

عربية صافية تهر المشاعر بإيقاعها الموسيقي ، وتثير
الافهام بمعانيها السامية التي صانت «حقوق الإنسان»
وحددت له واجباته ومسؤولياته نحو الله والمجتمع -
استطاعت لغة هذه الرسالة ان تكتسح بقية اللغات
وان تحتل الصدارة في البيئات الرسمية والشعبية
وعلى السنة القوم على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ،
وما هي الا فترات لم تطل حتى انقلبت بلاد الشام
عربية اللسان ، وعربية الفكر والقلب والوجدان ،
وانضوت باكثريتها تحت راية القرآن .

لقد كان هذا الحدث من اقوى العوامل
والاسباب التي ربطت ، في الاقليم الذي اميش في
ظلاله ، بين العربية والاسلام .

ومن الشام انطلقت البعثات تنشر هذه
الرسالة، رسالة النبي العربي في انحاء الدنيا ..
تنشر الدين واللغة معا . واذا الاسلام ببلاغة القرآن
وبدستوره المحكم يقضي على الوثنيات ويصبح للغة
العربية هذه القداسة في نفوس القوم والاداة المعبرة
من هواجسهم وآرائهم في شتى شؤون الحياة
والمجتمع ، وفي شتى الوان المعرفة ..

* * *

هذا وان آثار لغة القرآن جليلة في إنتاج علماء
المعجم .

نلمس ذلك فيما كتبه شاعر الباكستان
المعظم محمد اقبال ، ففي اكثر كتاباته صور من
نفحات القرآن ، والفاظ تنبع من صميم القرآن .

ونلمس هذا عند شاعر الترك الاعظم عبد الحق
حامد . فالكثير من شعره وادبه مردان بنفحات من
كتاب الله العظيم ..

واستطاع القرآن ان يصون لهجات الجاليات
الاسلامية في الاقطار الغربية - من الهلهلة ، بل كان
له اثره في اصفاء رونق جميل على ادبهم . وهذا ما
نلمسه في ادب المهجرين وفتنهم واكثرهم من
اخواننا المسيحيين ا

هذا وقد استطاعت العربية ان تفرض ذاتها
على الكثير من الامم الاسلامية فكان لبلاغة القرآن
الرها في النفوس وفي العقول وفي الادواق .. ومن
هنا ظل الترابط وثيقا بين العربية والاسلام ، وكان
لهذا الترابط اثره في غير المسلمين ولدى
المستشرقين بصورة خاصة فاننا نقرأ لكثيرين منهم
دراسات باللغة العربية على غاية من العمق والقيمة
الفكرية .

قد يقال ان مكوف المستشرقين على تعلم
العربية يختلف كل الاختلاف على اولئك الذين
اجتذبهم الاسلام الى رحابه ودخلوا في دين الله
افواجا .. ولا نقول غير ذلك .. الا ان غنى اللغة
وسحرها واستيعابها لتروح الاسلام ولشريعته
السمة هي التي اجتذبتهم الى دراستها فتركوا
آثارا تعتبر بها الدراسات المنهجية وان شاب الكثير
منها نزغات وشكوك ولوثات لم تخف على الباحثين
الذين تناولوها بالرد على ضوء من الحقائق المجردة
التي ترفض العقل والضمير ويقرها الايمان والفكر
الحس ..

ويعد فليس هنا مجال التوسع في هذا
الاستطراد الذي جاء مرصا وانا اشير الى لغتنا
الجميلة التي عاشت مع القرون وما زالت حية نابضة
معبرة عن الكثير من الخلفيات الإنسانية ، تأخذ
وتعطي دون ان يصيبها الهزال او الشيخوخة او
الموت الذي اصاب الكثير من اللغات ا

* * *

وقد ظلت العلاقة بين الاسلام واللغة العربية
غير منفصلة طوال عصور التاريخ .

ففي بلد الشام، ونرجع الى عهد الفتح العربي،
كانت لغة السوريين خليطا من الآرامية والسريانية
واليونانية وغيرها من لغات ولهجات .

وكانت العربية على لسان بعض القبائل
والمشيخات العربية القاطنة في الاطراف والتخوم ،
فلما جاء الفتح العربي يحمل رسالة السماء بلغة